افلاس علم الاجتماع البورجـوازي

الطائلي عبد الحميد

ان الانتاج الفكري في أي مجتمع من المجتمعات لا يمكن أن يكـون الا وليد العوامل السوسيو اقتصادية التي تتجسد تجسيدا عينيـا في نظـام وعلاقات الانتاج ، والابنية الفكرية ـ في مجال العلوم الاجتماعية) حتى ولو تسترت بستار العلمية أو العلموية ـ ما هي الا انعكاس فوقي لعلاقات القوى الاقتصادية والسياسية الفاعلة داخل المجتمعات في زمـن معيـن . ومـن هنا فانه لا يمكن فهم تلك الابنية بدون الرجوع الى الصراع المحدد لها ، أي بدون دراسة البنيات التحتية ، القاعدة المادية التي أفرزتها .

والنظريات السوسيولوحية ، التي ظهرت في الولايات المتحدة في بداية العشرينات والثلاثينات ، أي بعد أن أصبحت هذه الاخيرة قـوة أمبريالية عظمى وأصبحت تسعى الى بسط نفوذها وسيطرتها علـى العالـم ـ تلـك النظريات ، حتى ولو كانت تخفي اهدافها ومراميها الحقيقية باعتبارها أدوات في خدمة الرأسمال الاحتكاري ، وراء المنهجية العلمية الصارمة ، فهي لا يمكن أن تفلت من القاعدة العامة ، قاعدة تبعية الفكر للواقع .

ان تلك النظريات ـ في نهاية التحليل ـ تعكس الاوضاع والتناقضات الاجتماعية في البلدان الامبريالية ، كما تعكس درجة التطور الكمي والكيفي للرأسمال الاحتكاري محاولة أن تطغى على مشاريعه في ادارة الاقتصاد والمجتمع طابع العقلانية ، وعلى الاستغلال المنهجي والنهب الفاحش لخيرات الشعوب طابـع المشروعيـة .

لقد كشف لينين بحق أنه في المجتمعات الرأسمالية التـي يمزقهـا الصراع ، فانه لا يمكن الحديث عن علم انساني محايد ... ان العلوم الانسانية في تلك المجتمعات لا يمكن الا أن تعكس الصراع اما بصورة مباشرة مفتوحة أو بصورة غير مباشرة ومتسترة .

انه على المستوى الداخلي ، أي في مواجهة المجتمعات الرأسمالية ، فان أغلب تلك النظريات السوسيولوجية (البنيوية الوظيفيـة ، مدرسـة التحليل النظمي ، المدرسة السلوكية) جاءت لتطرح عقلانية التطور الذاتـي

للرأسمالية ، ونزوعها التلقائي الى التوفيق بين الطبقات المتعارضة في المجتمع ، بفضل التقدم التكنولوجي ، وبالتالي فهي تطرح لا جدوى النضال الطبقي في ظروف الرأسمالية المتطورة . أما على الصعيد الخارجي ، أي في مواجهة الدول المستغلة « العالم الثالث » فان تلك النظريات تقلب الاشكالية تماما ، اشكالية العلاقة بين العالمين ، والتي تتسم أساسا بالهيمنة والتسلط والنهب ، ا ذتصبح الامبريالية الحديدة في عرف المنظرين البورجوازيين عاملا من عوامل الارتقاء الثقافي ، أي عاملا من عوامل تثوير المجتمعات المتخلفة . !! والتثوير في عرف اولئك المنظرين يعني طبعا اعتماد وسلوك نفس الطريق الذي سلكته البورجوازية الاوروبية في بداية القرن التاسع عشر في اوربا الطريق الليبرالي في التنمية (نظرية روستو في المراحل الخمس للتطور الاقتصادي) جاهلة أو متجاهلة أن ذلك الطريق قد ارتبط بأوضاع اقتصادية دولية محددة ، اذ أنه وكما كشفت نظرية المركز ـ المحيط لسمير أمين عن ذلك ، فانه لا يمكن الاعتماد على أي من البورجوازيات الوطنية في انجاز ما أنجزته البورجوازية الاوروبية في نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر ، نظرا للفارق الهائل بين الاثنين ، فبينما كانت البورجوازية الاوروبية تتمتع باستقلال ذاتي ، نرى أن كل البورجوازيات في « العالم الثالث » لا تتعدى كونها أدوات في يد الامبريالية تستخدمها لزيادة حجزها ونهبها لثروات وقدرات الشعوب الاقتصادية لقاء بعض التعويضات والامتيازات تحصل عليها تلك البورجوازيات « الكمبرادورية »

وقبل أن نستعرض بالتحليل والنقد بعض المدارس التي أثرت أكثر من غيرها في واقع السوسيولوجية الغربية الحالية ، وكان لها تأثير واسع ومباشر على قيام ونمو علم السياسة الليبرالي ، فاننا سنقوم أولا بعملية جرد عامة ومختصرة لاهم الخصائص التي تميز بها علم الاجتماع البورجوازي، والاسس التي يقوم عليها .

أولا : يتميز علم الاجتماع البورجوازي بنوعيته الغربية المتطرفة **Occidentalocentrisme** حيث يصبح الغرب هو بؤرة العالم ، هو مركز ملاحظة ومشاهدة العالم ، بصبح النموذج ، ونقطة الانطلاق لاي تنظير في مجال العلوم الاجتماعية .

ثانيا : تشكو النظريات السوسيولوجية والسياسية في اطار العلم البورجوازي من انعدام العمق التاريخي في التحليل ، فهي لا تهتم الا بالظواهر الحاضرة والآنية معزولة عن جذورها التاريخية ، عن التربة التي انتجتها وعن صيرورتها التطورية ، وحين تتعرض للتاريخ فانها تتعامل معه على اعتبار انه مجرد وعاء زمني ، حيث تفصله عن التشكيلات الاجتماعية المرتبطة به ، وعن القوى الاقتصادية التي تصنعه . وهذا ما أوضحه بالتفصيل عالم الاجتماع نيكوس بولنتزاس **Nicos Poulantzas** حينما تعرض

بالنقد لهذه المدارس .

ثالثا : تشترك تلك النظريات في قاسم مشترك ، وهو محاربتها الضمنية والصريحة للديالكتيك الماركسي ، ولكل الاسس التي قام عليها الفكر الاشتراكي ، معتبرة أن الايديولوجيا ـ أية ايديولوجيا ـ تتنافى مع السوسيولوجيا كعلم التي يجب أن تترفع عن الصراع العقائدي والسياسي الذي يجري في المجتمع المعاصر ، وهكذا فانهم يعتبرون الايديولوجية عبارة عن مجموعة من الافكار المضللة التي تجرف الحقيقة الواقعية ، كما أنها مجموعة من التصورات اللاعقلية والمتحجرة ، التي تعيق تطور العلم !!

ويرتبط بهذا انكارهم للقوانين التاريخية وللمنطق التاريخي في شرح الظواهر الاجتماعية .. وقد تنبه لينين لهذا الميل عند علماء الاجتماع البورجوازيين في عهده فكتب بقول « انه من أجل اكتساب شهرة عالم اختصاصي محترم في حقل العلوم الاجتماعية ، لا يحتاج الانسان أن يكون عالما ، أو أن يكتسب المعارف العميقة ، بل يكفيه أن يثبت استحالة الاشتراكية ، والقضاء على الماركسية ، لكي يقال عنه بأنه عالم شهير ، ضاربا عرض الحائط بكل القوانين التاريخية » .

والهدف من هذا كله واضح طبعا ، وهو اثبات استحالة التطور السنوي للمجتمعات وفق منطق التاريخ ، وبالنظر الى أنماط الانتاج التي تتغير بالضرورة وفقا لقوانين محددة .

ويلجأ علماء الاجتماع البورجوازيين الى عدة مقولات ، كمقولة الثورة الجنسية ، أو الثورة التكنولوجية لاخفاء التحولات الحقيقية والتناقض المتسع بين مصالح الجماهير العريضة من العمال ، ومصالح حفنة من الامبرياليين .

وأمام زحف القوات الاشتراكية ، قوى الامل والتقدم ، هذا الزحف الذي يرعب السوسيولوجيين البورجوازيين ، عملاء الامبريالية ، فان نزعة التشاؤمية التاريخية تبدو واضحة في كتاباتهم ، اذ يعتقدون أن نهاية الرأسمالية هو نهاية للمدنية ولكل القيم الانسانية !! .

ويدور الحديث عند أصحاب الموجة الجديدة في السوسيولوجيا الامريكية عن نهاية الايديولوجيات وتقادم الصراع الايديولوجي في المجتمع الصناعي المتطور ، بفضل التقدم التكنولوجي الذي يسعى تلقائيا الى اذابة الفوارق الطبقية .

هكذا اذن ، وبجرة قلم تصبح التكنولوجيا عصى سحرية ، ويصبح الصراع الطبقي والقهر الاجتماعي ، قضايا متجاوزة في مجتمع الرأسمالية المتطورة ، وينسى أمناء الامبريالية أن الصراع الطبقي يتحدد بناء على العلاقة القائمة بين المنتجين ومالكي وسائل الانتاج داخل تشكيلية اجتماعية محددة ، وأن التكنولوجيا يمكن أن تستغل من أجل زيادة القهر والظلم ، وهو ما تشير اليه أوضاع المهمشين والسود في الولايات المتحدة . اذ أن التكنولوجيا حتى

وان استطاعت تقوية فعالية الانتاج الاجتماعي ، الا أنها لا تقوى على قلب علاقات الانتاج التي تحتفظ بطابعها الطبقي .

رابعا : تنزع جل المدارس السوسيولوجية المعاصرة نزعة برجماتية ، وهي نزعة تستخف بالنظرية وبالقيم ، اذ يصبح كل ما هو نافع صحيح عوض أن يكون كل ما هو صحيح نافع ، واذا كان بعض علماء الاجتماع البورجوازيين ينادون بضرورة أن يكون للعلوم الانسانية فائدة اجتماعية **Utilité Sociale** فان تلك الفائدة تتجه أساسا لجانب الطبقات المسيطرة ، حيث أصبح تقليدا متبعا في الولايات المتحدة مثلا أن يلجأ المسؤولون السياسيون على أعلى المستويات الى الاستفادة من خبرات المنظرين في مجال العلوم الانسانية يمدونهم بدراسات مفصلة عن طبائع وشعوب المناطق التي يريدون بسط نفوذهم الاقتصادي والسياسي فيها . ويذكرنا هذا بالدور الرجعي الذي لعبته الاتنولوجيا **l'éthnologie** في بداية التغلغل الاستعماري المباشر . وما قدمته من خدمات الى مخططي الحملات العسكرية الغازية .

هكذا اذن نرى كيف تطغى « نفعية الحقيقة الاجتماعية » وتطغى معها التطبيقية الضيقة .

وبالموازاة مع ذلك ، تنشأ في الدول الغربية معاهد ومنتديات تتكلف بتكوين ملفات عن أمزجة أذواق المستهلكين ، وعن شواغل الناخبين ، وتقديم تلك الملفات جاهزة الى الشركات الاحتكارية والاحزاب السياسية البورجوازية التي تغير استراتيجياتها حسب المتطلبات الظرفية .

ويلعب علم النفس دورا حيويا في هذا المجال ، خصوصا بعد انتشار وسائل الاتصال بالجمهور واكتسابها أبعادا جديدة .

وقد بينت مونيكا شارلو **Monika Charlot** عن دور الاساليب المستخدمة من طرف معاهد الرأي العام في مطاردة الناخبين وتعليب وعيهم وجرهم الى اتخاذ مواقف وقرارات قد تتناقض مع مصالحهم . ولهذا انعكاس على مجموع بنيات المجتمع الرأسمالي . اذ أصبحت جل القرارات تتخذ في غياب تام عن البرلمانات التقليدية التي لا تفعل أكثر من التصديق على سياسات تكون قد أعدت في منتديات خاصة « **Lobby** » من طرف مجموعات من الاوليغارشية المالية . وقد أظهر هذا بوضوح **R. Gerard shwartzemberg** حينما تحدث عن الاساليب التي تستخدمها الجماعات الضاغطة من أجل احتكار السلطة الفعلية داخل المجتمعات الغربية ، وجعل القرارات المصيرية بالنسبة للجماهير الواسعة تقرر خارج المؤسسات الرسمية الشكلية .

خامسا : وبفعل تاثير الوضعية الجديدة **Néo-positivisme** والنزعة التجريبية ، فان علم الاجتماع البورجوازي أعطى أهمية قصوى

للوقائع المجردة ، واعتبرها حجر الزاوية في أية نظرية ، ولو نظرية وسطى . وهناك انتقائية واضحة في جمع هذه الوقائع وتصنيفها ، كما أنها تؤخذ على اعتبار أنها خالية من أي محتوى موضوعي ، كما أن علماء الاجتماع البورجوازيون لا يأخذون الوقائع بصلاتها العامة بل يأخذون جزءا منها ، وقد انعكس هذا على صعيد النظرية ، حيث وجدت عدة سوسيولوجيات ، (سوسيولوجيا سياسية ، سوسيولوجية العلاقات الاجتماعية ، سوسيولوجية صناعية) وهذا وحده كاف للتدليل على عجز علماء الاجتماع الليبراليين على ايجاد نظرية عامة منسجمة ، وهذا أيضا هو ثمرة طبيعية لمحاولة عزل السوسيولوجيا عن الفلسفة عزلا تعسفيا .

سادسا : أما على صعيد التفسير (التفسير النظري) وهو أحد المقومات الابستمولوجية الاساسية في أية نظرية علمية ، فاننا نلاحظ في هذا المجال ، وربما أكثر من غيره ، عجز النظرية السوسيولوجية الليبرالية عن الاحاطة بشمولية الظواهر الاجتماعية ، وذلك لغياب مبدأ تفسيري شامل **un principe explicatif** تعتمد عليه النظرية ، وتبنى عليه استنتاجاتها ويعطي لمجموع أجزائها التوافق والانسجام ، وذلك على غرار ما أتت به المادية التاريخية حينما انطلقت من هذا المبدأ الشامل : ان تاريخ أي مجتمع ، الى يومنا هذا ، ليس الا تاريخ الصراع بين الطبقات ، وان هذا الصراع هو محرك التاريخ . وأن البنية التحتية التي تحدد مضمون ومحتوى البنية الفوقية . فانطلاقا من هذا المبدأ التفسيري الشامل استطاعت الماركسية أن تبني الفلسفة العلمية للتاريخ وللمجتمع ، كما استطاعت أن تضع يدها على القوانين الموضوعية لتطور الظواهر الاجتماعية .

وسنحاول الآن أن نبرز عجز النظريات السوسيولوجية الليبرالية في الاحاطة بكلية الظواهر الاجتماعية ، كما سنحاول أن نبرز المضامين الايديولوجية التي تنطوي عليها ، وذلك من خلال استعراضنا لبعض المدارس التي نرى أنها أثرت علم الاجتماع البورجوازي بعدد من المفاهيم والمقولات ، التي أراد بها أصحابها احداث ثورة في ميدان العلوم الانسانية بصفة عامة .

البنيوية الوظيفية :

تطرح البنيوية الوظيفية مقولة البنية ، ومقولة الوظيفة كنقاط انطلاقها للظواهر الاجتماعية ، وقد استعارت هذه المدرسة التي يعتبر هربرت سبنسر من روادها الاولين هذين المقولتين عن البيولوجيا .

وترى هذه المدرسة أن الجسم الاجتماعي يشبه الجسم الانساني من حيث أنه مجموعة من البنيات تقوم بمجموعة من الوظائف (1) وأن استقرار

---

(1) لا يجب أن يقع الخلط بين الوظائف والادوار ، اذ أن مدرسة الدور تشكل مدرسة بمفردها ، ليست لها علاقة كبيرة بالمدرسة الوظيفية .

هذا الجسم يتوقف على مدى قدرة البنيات على القيام بالوظائف التي تمكن المنتظم السياسي أو النظام الاجتماعي ككل من التماسك والاستقرار ، وهكذا فان هذه المدرسة تحاول أن تجيب على السؤال التالي : ما هي الوظائف التي يتعين على الجسم الاجتماعي القيام بها ليحفظ استقراره ؟ .وتأخذ البنيات هنا كل المنتظمات التي تقوم بمهام اجتماعية محددة بدءا من العائلة ، الى المدرسة ، الى المعمل ، الى البرلمان . ويمضي التحليل البنيو وظيفي ليصل الى أن هذه البنيات هي أساس الحياة الاجتماعية ، وقد وجدت عبر كل العصور التاريخية تتغير أشكالها ، ولكنها هي هي من حيث الجوهر ، لتقوم بوظيفة حفظ استقرار المجتمع من التصدع : فاذا كان البرلمان اليوم هو الذي يقوم بوظيفة التشريع ، فان القبيلة أو العشيرة القديمة هي التي كانت تقوم بهذا الدور في المجتمعات القديمة .

لنلاحظ أولا أن هذا التحليل يخلط بين المؤسسة الاجتماعية ، والبنية الاجتماعية **Structure, institution** ، باعتبار أن الاولى هي اطار تنظيمي ، قانوني لتركيبة اجتماعية معينة ، وأن الثانية (البنية) هي وحدة مادية تؤسس على ممارسات **pratiques** وعلاقات داخل التشكيلات الاجتماعية الواسعة (أنماط الانتاج والقوى الاجتماعية) التي يحدد مسارها وتطورها الصراع المادي بين الاضداد . ذلك أن المؤسسة ما هي في نهاية الامر الا محمل **Support** للبنية الاجتماعية وتعبير مركز عنها ، وبناء على هذا ، فانه لا يمكن اعتبار البرلمان بنية اجتماعية بالمعنى الوظيفي لان الصراع الحقيقي ، البراكسيس الاجتماعي بين الطبقات المتعارضة ماديا يقع خارجه .

ولنلاحظ ثانيا انه من خلال هذا التحليل يقع التركيز على « الاستقرار » استقرار النظام الاجتماعي من خلال عملية استمرار البنيات في القيام بوظائفها ، ولا يهم كيف يجب أن يتحقق هذا الاستقرار ، اذ يجوز للنظام أن يتخذ كل الاجراءات التي يراها قادرة على الحفاظ على الاندماج الاجتماعي

عند هذا الحد يسهل علينا أن نرى كيف أن البنيو وظيفية تنقلب الى ايديولوجية رجعية تعارض مفهوم الديالكتيك ، والتغير والتطور الاجتماعيين ، الحتميين بفعل تصارع الاضداد : الرأسمالية والبروليتارية ، ثم يسهل علينا بعد ذلك أن نرى احدى نتائجها النظرية ، والتي تتمثل في الدعوة الى التعاون أو التصالح الطبقي حفظا لاستقرار النظام ، وهي نفس الاطروحة التي يرددها الاشتراكيون اليمينيون ، وكل التيارات الاصلاحية .

ولنلاحظ أخيرا أن التحليل بناء على البنية والوظيفة ، حتى وان بدا منطقيا باعتبار أنه يسعى الى ضبط الفوضى في الظواهر الاجتماعية من خلال ربطها ببنيات محددة ، الا أن حدوده تقف عند هذا المستوى ، اذ أن البنيات في حد ذاتها لا تعني شيئا بدون تحليل المكونات المادية التي تشكلها ، وهو

ما يرفض البنيو وظيفيون القيام به .

وهكذا نجد أنفسنا مع أطروحات البنيو وظيفية ، أمام تحصيل للحاصل ، أو مصادرة على المطلوب ، وهو نتيجة حتمية للمنهج المعتمد الذي لا يسعى للنفاذ الى عمق الظواهر بقدر ما يسعى الى وصفها وتصنيفها .

وترتبط بهذه المدرسة ، تيارات سوسيولوجية أخرى نصبت نفسها لمهاجمة مقولة الصراع الطبقي الماركسية ، فهي ترى أن المجتمعات الغربية هي مجتمعات مفتوحة ، تتمتع بحركية اجتماعية **mobilité social** قوية ، تجعل أحط الناس في السلم الاجتماعي قادرا على ولوج أعلى الوظائف والوصول الى أعلى مستويات السلطة الاقتصادية والسياسية ، وهكذا فعندهم أن مفهوم الطبقة كما حددها ماركس ، مفهوم لا يمكن الاعتماد عليه ، حيث يستبدلونه بمفهوم الجماعة **Groupe** . ويلاحظ غياب أية مقاييس موضوعية في تحديد مفهوم الجماعة ، حيث تتحدد في الغالب باعتبارها مجموعة من الافراد بينها مصالح ، قد تكون اقتصادية ، أو نفسية ، أو عاطفية ، ويحصل بينهم نوع من الانسجام والتماسك ، أين نحن من المفهوم الماركسي العلمي للطبقات ، والتي يحددها بالقياس الى المكان الذي شغله في عملية الانتاج الاجتماعي ، المحدد قانونيا . والجماعات عندهم هي حيوية ومتساوية في القيمة كمواضيع للتحليل السوسيولوجي ، اذ لا فرق في ذلك بين جماعة القمار ، أو جماعة النادي الرياضي ، والجماعات الاقتصادية ، كجماعات العمل والانتاج .

ولا عجب في ذلك ، فعلم الاجتماع البورجوازي المعاصر يتعذر عليه التفريق بين الظواهر المهمة وغير المهمة في تشكيله العلاقات الاجتماعية .

هذا وان واقع التركيب الاجتماعي في الدول الرأسمالية يفند ما تدعيه السوسيولوجيا البورجوازية من وجود حركية اجتماعية قوية داخل المجتمعات الغربية ، فالاتجاه نحو الاحتكار وتركيز الثروات لا زال هو السمة الاساسية للبنية الاقتصادية الرأسمالية ، وقد بلغ ذروته مع ظهور الشركات المتعددة الجنسية .

التحليل النظمي أو النسقي وفراغ العلبة السوداء L'analyse systémique

أما التحليل النظمي فانه ينطلق من مقولة النظام **Système** ومحيطه ليحلل أنواع العلاقات التي يمكن أن توجد بينهما محاولا من خلال ذلك الاحاطة بكلية الظواهر المجتمعية وحقائقها ورصد تطوراتها الممكنة . ويعتبر طالكوت باسونز **T. Parsons** من رواد المدرسة السيستيميكية في السوسيولوجيا . وعندما انتقل دافيد ايستون **D. Easton** بهذه النظرية الى المجال السياسي، أي لتحليل الظاهرة السياسية فانه توصل الى الاطروحة التالية : انه لكي نفهم النظام السياسي فانه يجب وضعه في اطار محيطه الخارجي والعلاقات المتبادلة بين أجزاء النظام السياسي . والنظام السياسي

هو مجموع البنيات والقوى التي تشارك في اتخاذ القرارات بصفة مباشرة . أما المحيط فانه يتكون من كل البنيات والقوى التي تتأثر بقرارات وأعمال النظام السياسي أكثر مما تؤثر فيه .

وللنظام السياسي مدخلات Imputs ومخرجات Outputs ، وهذه المدخلات هي وسائله لربط الصلة بمحيطه ، فعن طريق المدخلات يتلقى النظام كل أنواع المطالب التي تتقدم بها عناصر المحيط (أحزاب سياسية ، نقابات ، جماعات ضاغطة ، قوى وفكرية سياسية واقتصادية واجتماعية) وبعد دخول المطالب الى داخل النظام ، تتحرك أدواته (حكومة ، برلمان ، كل القوى السياسية التي تحتكر السلطة) للاستجابة لهذه المطالب في شكل قوانين وقرارات سياسية .

ان هذه الاطروحة بغض الطرف تماما على كل ما يجري داخل النظام ، عن الطريقة التي يتم بها صنع القرارات ، وعن الميكانيزمات التي تتحكم في العلاقات بين النظام ومحيطه ، كما أنها لا تقول أي شيء عن الدور الذى تلعبه القوى الاقتصادية داخل النظام ، أو داخل العلبة السوداء la boîte noire كما يسميها أصحابها . ثم انها تقوم العلاقات بين النظام ومحيطه لا باعتبارها علاقات صراع بين مصالح متضاربة ـ على اعتبار أن النظام له استقلال ذاتي ، وهو ما سنبين استحالته في المجتمع الرأسمالي ـ بل علاقات تكامل وتعاون متبادل . ولنا أن نفهم من هنا مغزاها الطبقي ونتائجها الايديولوجية (عقلانية البناء الرأسمالي ، وامكانية قيام تصالح طبقي داخله)، مما يجعل ما قلناه بصدد نقد البنيو وظيفية صحيحا هنا أيضا .

النظرية السلوكية Behaviorist

انتشرت هذه المدرسة على نطاق واسع في الولايات المتحدة ، معتمدة على علم النفس ، وعلم النفس الاجتماعي ، والطرق الاحصائية والقياسية في التحليل وادعت أنها حاملة لواء التجديد الجذري في ميدان العلوم الاجتماعية ، حيث اعتبرت أن كل المدارس والتيارات التي سبقتها تتناول الظاهرة الاجتماعية مثاليا لانها تدخل القيم والمبادىء والفرضيات ، وهذا ما يضفي عليها طابع اللاعلمية . وقد اعتمدت مقولة السلوك comportement كوحدة ، أو جزئية أساسية في التحليل ، ونقطة انطلاق عند رصد كل ظاهرة اجتماعية .

ويمكن تلخيص أطروحة هذه المدرسة في ميدان علم السياسة الليبرالي، كما جاء بها هانز بولاد ، أول من حاول تطبيقها في ذلك الميدان على هذا النحو :

انه لا يمكن عزل الظاهرة السياسية بمعزل عن دراسة سلوك القادة وصانعي القرارات السياسية ، وهذه الدراسة لا تغني عن علم النفس وعلم النفس الاجتماعي . وما القرار السياسي الا حصيلة التزاوج بين الموثرات الخارجية على القائد وبنيته النفسية سواء منه الواعية أو غير الواعية .

لعل أهم ملاحظة تتبادر الى ذهننا عند محاولة نقد أطروحة السلوكية أنها تأخذ عالم صانعي القرارات في عزلة عن التركيب الاجتماعي الشامل الذي يعمل فيه أولئك والتي تتحدد أساسا بنمط الانتاج السائد ، وبعلاقات الانتاج المهيمنة وميزان القوى بين الطبقات . ان هذه المدرسة لا تعترف بأولوية الوجود الاجتماعي على أنماط الوعي الفردية للقادة ، اذ تلغي دراسة الخصائص النفسية لهؤلاء وحوافزهم الفكرية. ومن ثم يصار الى حصر البراكسيس الاجتماعي بكل تناقضاته الى فعالية فئة أو مجموعة من الفئات القيادية . ان التركيز على دراسة سلوك القادة ، والمؤسسات التي يعملون داخلها يعني عمليا الاعتراف باستقلال شامل **autonomie** للنظام السياسي وأداته الرئيسية الدولة ، الذي يظهر لنا التحليل الماركسي التاريخي أنه مجرد أداة تستعملها الطبقة المسيطرة لقمع الطبقات المستضعفة بواسطة شبكة من الادوات ، منها القسرية (جيش ، بوليس) ومنها تلك التي تظهر على شكل تنظيم عقلاني للمجتمع (ادارة ، مدرسة) ثم ان غياب الاهتمام بقضايا المثل والقيم الانسانية يقرب هذه المدرسة من النزعة البرجماتية ، ويجعلها مجموعة من الفرضيات الفجة لا تنسجم ورسالة العلم الانسانية .

النظرية الاوليغارشية ونظريات النخبة :

ترتبط النظرية الاوليغارشية بثلاثة أسماء رئيسية : روبرتوميلشلز **R. Michels** والفريد باريتو **A. Pareto** وكايطانوموسكا **C. Mosca** وتلتقي أفكارهم الاساسية حول هذه النقطة : ان دراسة نقدية للتاريخ تظهر أن النظرية الماركسية حول صراع الطبقات غير صحيحة ، ذلك أن الصراع الاساسي في المجتمعات عبر الزمان والمكان هو الصراع بين الاوليغارشيات أو النخب . وكل نخبة تحتكر السلطة تحاول انتاج نفسها ، أي تحاول أن تضمن لنفسها الاستمرارية . ويتحدث باريتو في هذا الصدد عن القاعدة الحديدية للاوليغارشية بمعنى أن البنية الاوليغارشية للحكام في أي مجتمع من المجتمعات مسألة حتمية .

والواقع أن الاساس النظري لهذه المدرسة قد أخذه روادها عن ماكس فيبر **M. Weber** عالم الاجتماع الالماني الذي كان قد لاحظ تعاظم دور البيروقراطية في المجتمعات الغربية ، واستخلص من ذلك أنه اذا كان هناك وجود للطبقات داخل المجتمعات الغربية ، فانه لا يمكن تحديدهما على أساس امتلاك وسائل الانتاج الاقتصادية، بل على أساس احتكار السلطة السياسية، حيث جعل من البيروقراطية طبقة مستقلة **autonome** لها مصالحها الخاصة، والتي تتناقض ـ في المجتمعات الصناعية ـ مع مصالح الطبقات المسيطرة اقتصاديا ، وهكذا يجري الحديث عنده عن طبقة سياسية .

وقد أخذ ماكس فيبر على الماركسية أنها أخطأت كثيرا في تحديد العلاقة بين الاقتصادي **économique** والسياسي **politique** حيث اعتبرت

السلطة السياسية بكل بنياتها تعبيرا مركزا عن الاقتصاد ، واعتبرت الدولة بكل أجهزتها مجرد أداة فوقيـــة .

ويأتي عالم الاجتماع الامريكي ورايت مايلز **W. Miles** ليحـــاول تأكيد ذلك ، حيث يقسم السلطة الحاكمة في أمريكا الى عدة نخب (عسكرية ، ادارية ، سياسية) تحتكر السلطة الفعلية في المجتمع رغم عدم امتلاكهـا لوسائل الانتاج ، ويستخلص من ذلك هو الآخر أن الماركسية قـد بسطت اشكالية العلاقة بين السياسي والاقتصادي حيث اعتبرت أن الطبقة المسيطرة اقتصاديا هي نفسها المسيطرة سياسيا ، واعتبرت السياسة تعبيرا مركزا عن الاقتصـاد .

وينطلق برنهام **J. Burnham** هو الآخر من ملاحظة عن امتلاك وسائل الانتاج في المجتمعات الرأسمالية المعاصرة فقد الكثير من أهميته ، ولم يعد يمكن أصحابه من الهيمنة السياسية ، وذلك لان الرأسمال قد فصل عن المراقبة والتوجيه ، بظهور طبقة المدراء **Managers** ، مدراء الشركات الكبرى الذين يملكون سلطة حقيقية لا تقل عن سلطة أصحاب رؤوس الاموال .

لقد أظهر سمير أمين أن اولئك المدراء ، ليسوا أكثر من أجراء للمشروع الرأسمالي وان برنهام قد وقع لدبه خلط بين التوزيع التقني للعمل ، الـذي يفرض التخصص ، وبين علاقات الانتاج ، وهي علاقات رأسمالية بالاساس .

ان ماركس ولينين لم يطرحا أبدا العلاقة بين السياسي والاقتصـادي بتلك البساطة التي عرضها بها **منظرو** الذخبوية البورجوازية . لقد أبـان أنها علاقة مركبة ومعقدة تنتقل فيها أصعدة التأثير المتبادل م نـنمط الانتاج الى نمط آخر (في نمط الانتاج الفيودالي يمكن أن تظهر بعض الفئات المسيرة على الصعيد السياسي وهي مستقلة شيئا ما عن طبقة الاقطاع . وفي العهـد النابليوني ، كانت الفئة العسكرية تملك استقلالا نسبيا عن البورجوازيـة الزراعيـة والصناعيـة) .

ولكن يبقى كقاعدة عامة ـ في النظرية الماركسية ـ أن الطبقة المسيطرة اقتصاديا هي التي تفرض اختياراتها وفلسفتها على أجهزة الدولة ، كما أنها تحاول فرض ايديولوجيتها على كل أجزاء النظام السياسي ، تلك الايديولوجية التي تسعى الى اظهارها على أنها ايديولوجية كل المجتمع .

يلاحظ بولنتزاس بحق أن النظريات النخبوية وأطروحات «البيروقراطية» تخلط خلطا لا علميا بين جهاز الدولة **appareil** وسلطة الدولة **pouvoir** فاذا نظرنا الى أجهزة الدولة في حد ذاتها ظهرت لنا وكأنها تنظيم مستقل عن هيمنة القوات الاقتصادية المسيطرة ، ولكن اذا نفذنا الى العمق ، وتتبعنا ما تقوم به من أعمال ونتائج هذه الاعمال على الوسط الاجتماعي ، ظهـرت لنـا طبيعتها الطبقية لهذا يتحدث ماركس عن الانتماء الطبقي للدولة

ولهذا يلح لينين على ضرورة استيلاء البروليتاريا ، باعتبارها الطبقة

الثورية على أجهزة الدولة وتحويلها ، وذلك لما يمثله الصعيد السياسي من أهمية .

من هنا يتضح لنا أن محاولة شرح تناقضات المجتمع الرأسمالي بناء على صراع النخب هي رد فعل رجعي على الطرح الديالكتيكي لتلك التناقضات، هذا الطرح الذي قامت به الماركسية فأثمرت فلسفة ثورية لتغيير العالم . ولا غرور فقد حملت كل تلك المدارس حملة مسعورة ضد نظرية صراع الطبقات العلمية لاهثة وراء بدائل نظرية موهومة ، عجزت كلها عن شرح قوانين التاريخ ، ديالكتيك الظواهر الاجتماعية وتطورها .

خلاصة عامة .

ان أزمة السوسيولوجيا الليبرالية هي من واقع أزمة الامبريالية ، أزمة نمط حضارة وأسلوب انتاج لا يعيش الا على النهب والابتزاز والدمار . أزمة نظام اجتماعي أصبح يتقلص يوما عن يوم بفعل ظهور المد الانعتاقي للشعوب المقهورة التي أصبحت اليوم ، أكثر من أي وقت مضى تعي دورها ومسؤولياتها في عالم اليوم ، تعي رسالتها المجيدة التي تتمثل في بناء عالم لا مكان فيه للاستغلال الرأسمالي . ولن تخفي تنظيرات البورجوازية وجه الامبريالية الحقيقي مهما حاولت ذلك وراء أقنعة العلم ... وأي علم ذلك الذي يضع من بين اهتماماته الاولى خدمة أهداف الطبقات المسيطرة في عالم الامبريالية .؟.. ومع ذلك فان السوسيولوجيا البورجوازية عاجزة عن وقف الشعور بالسخط والتمرد الذي يظهر في صفوف طبقات الشعب الواسعة داخل الدول الرأسمالية نفسها ، وهذا ما أكده بوبوف حينما قال : « وبالرغم من كثرة الانظمة التي أوجدها علماء الاجتماع البورجوازيون والفلاسفة الاجتماعيون، فانهم لا يستطيعون أن يقترحوا على طبقتهم أية أفكار بناءة ، وليس في استطاعتهم أن يرفعوا أفكارا وأهدافا تقدمية ، قادرة على بث روح الحماس في طبقات الشعب الواسعة . وفي هذا تعبير عن البؤس الفكري لعلم الاجتماع البورجوازي .

من المصادر المعتمد عليها في الدراسة :

س. ى. بوبوف. **نقد علم الاجتماع البورجوازي المعاصر** ـ دار دمشق ، 1973

Nicos Polantzas : Les classes sociales dans le Capitalisme aujourd'hui - Seuil

N. Poulantzas : Pouvoir Politique et classes Sociales - Maspero 1971